الدرس المقارن والتحوّلات المعرفية الجديدة

نظيرة الكنـــز
جامعة باجي مختار عنابة (الجزائر)

Summary :

This study discusses the development experienced comparative studies after its opening on the American school , exceeding the doctrines of the French school and the establishment of rules that take into account the interference of the literature (from the point of view creative and critical) with the humanities, arts, and different means of linguistic and non-linguistic expressions .

This school had goals that revolved around a main axis which is an overall vision that opens the text both internally and externally. And although the great figures of this schools have made some methodological errors, their criticisms and ideas have contributed to a further step, the birth bolder ideas that led to comparative studies remain bright and regenerate with regeneration of human thought.

Key words : Comparative_literalite_ Characteristics_method_opening

Résumé :

Cette étude traite le développement qu'a connu les études comparatives après son ouverture sur l'école américaine, le dépassement des doctrines de l'école française et son instauration de règles qui prennent en compte l'interférence de la littérature (du point de vue créatif et critique) avec les sciences humaines, les arts, et les différents moyens d'expressions linguistiques et non linguistiques.

Cette école avait des objectifs qui s'articulaient autour d'un axe principal qui est une vision globale qui s'ouvre sur le texte tant sur le plan interne qu'externe. Et malgré que les grandes figures de ces écoles aient commis quelques erreurs méthodologiques, leurs critiques et leurs idées ont contribué, dans une autre étape, à la naissance d'idées plus audacieuses qui ont permis aux études comparatives de rester vives et de se régénérer avec la régénération de la pensée humaine.

Mot clés :comparative_ littéralité_ Caractéristiques_méthode_ouverture

ملخص:

تتناول الدراسة التطور الذي عرفه حقل الدراسات المقارنة من خلال انفتاح المدرسة الأمريكية وتجاوزها مقولات المدرسة الفرنسية وإرسائها لقواعد منفتحة على ما عرفته الظاهرة الأدبية إبداع ونقدا من تداخل وتفاعل مع العلوم الإنسانية والفنون وأشكال التعبير المختلفة اللغوية وغير اللغوية.

رسمت هذه المدرسة أهدافا محورها الرئيس رؤية شاملة تنفتح على النص داخليا وخارجيا، ورغم وقوع أقطـــاب هـــذه المدارس في بعض الهنات والزلات المنهجية إلا أن انتقاداتهم وأفكارهم أسهمت في مرحلة أخرى في ميلاد أفكار أكثر جرأة أبقت حقل الدراسات المقارنة حركيا ومتجددا تجدد الفكر الإنساني.

الكلمات المفتاحية:المقارنة_الأدبية_الخصائص_المنهج_الانفتاح

تمهيد:

تفاعل الأدب المقارن منذ ظهوره مع التيارات والمذاهب الفلسفية والأدبية، واستفاد منها في دعم أسسه ومنطلقاته النظرية وتوجهاته التطبيقية. وكان هذا التفاعل ثمرة ظهور مدارس مقارنية (فرنسية وأمريكية وسلافية) سارت جنبا إلى جنب مع ما شهدته الظاهرة الأدبية من تطور على مستوى الإبداع والنقد. وصادف المشتغلون بهذا الحقل المعرفي عدّة عراقيل، وكان في بداية الأمر بمثابة المولود غير المرغوب فيه، فمن قائل أن لا جدوى من الدراسات المقارنة لأن هناك النقد الأدبي والتاريخ الأدبي، وبالتالي فلا وظيفة يؤديها، وذهب البعض الآخر إلى القول إن مفهوم الأدب المقارن يختلف من أمة إلى أخرى ومن مدرسة إلى أخرى، وقد أثرت هذه الاختلافات على حركية هذا المجال في مرحلة ولكنها في مرحلة أخرى كانت دافعا قويا لصموده وتجديد آلياته وتوجهاته ومصطلحاته.

دافع أنصار هذا الحقل الدراسي عنه ورأوا أن هذا الحقل المعرفي يمتلك جملة من الخصائص التي تميزه عن النقد والتاريخ الأدبيين. كما أنه يسعى إلى تحقيق أهداف جوهرية وسيتمكن من تأدية دور جوهري في تطور الدرس الأدبي تنظيرا وتطبيقا. وأسهمت التطورات المنهجية والانفتاح على العلوم الإنسانية واللسانيات والفنون وأشكال التعبير المختلفة اللغوية وغير اللغوية في توسيع الرؤية المقارنية، واستفادت من كل الرؤى وتجاوزت بعض الأزمات التي كادت أن تدخل هذا الميدان المعرفي في العزلة والتقوقع والنظرة الأحادية الضيقة.

من هذا المنطلق ورغم اختلاف وجهات النظر وتباينها شرقا وغربا كان اتفاق المقارنين حول قاسمين مشتركين هما:

1-تجاوز حدود الأدب القومي الواحد.

2_اعتماد المقارنة كوسيلة معرفية وجمالية.

مرّ الأدب المقارن أثناء عملية التجديد بعدّة مراحل من هيمنة الدراسات التاريخية، وتاريخ الأفكار، ودراسة الموضوعات إلى الاحتكام إلى بنيات النص الداخلية، ودراسة التناص ومختلف الأنساق الثقافية المتحكمة في الظاهرة الأدبية إبداعا ونقدا. وكان الصراع على أشدّه بين الدارسين الذين قدموا اقتراحات جديدة، وحافظوا على بعض الثوابت التي تزامنت مع تطور الدرس المقارن.

وعرف هذا الحقل الدراسي وجهات نظر مختلفة في المفاهيم والميادين والمنهجية، تماشيا مع المنطلقات الفكرية والحضارية التي وجّهت، وتُوجّه، الدرس الأدبي، باعتباره نشاطا فكريا مرتبطا بالظاهرة الإبداعية المتغيرة تغير المبدع نفسه، كما أنها تأثرت بجملة المرجعيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فظهرت تبعا لذلك مدارس أو توجهات وسّعت ميادينه، ومناهجه وخطواته الإجرائية انطلاقا من حركة المد والجزر بين العناصر الثلاثة المتحكمة في الظاهرة الأدبية (المؤلف _النص _القارئ) .

أولا-بين المدرسة الفرنسية والأمريكية (من السياق إلى النص):

قدّمت المدرسة الفرنسية رؤية منهجية تقوم على مجموعة من المبادئ التي رأتها ضرورية لأي بحث مقارن، وتجلى ذلك من خلال جهود الرواد الأوائل ثم من جاء بعدهم. " و لاشك أن الفضاء الاستراتيجي لفرنسا، ساعد هذه الأخيرة في أن تكون ملتقى تيارات من جهة، كما إن التاريخ التوسعي لمستعمراتها أفرز بدوره الكثير من ردود الفعل من جهة ثانية، مما خدم موقع المدرسة من زاويتين، هما الفضاء والتاريخ، على عكس الدراسات الألمانية التي تميزت بروح نقدية، وفرتها لها التراكمات الفلسفية."[1] ومن هذا المنطلق كانت فرنسا مهيأة لاستقبال هذا الحقل المعرفي وتحديد أسسه باعتبار مفهوم التميز والأمجاد التاريخية. وتجلت هذه النزعة في أعمال الأجيال المتعاقبة، ومع ظهور أول كرسي للدراسات المقارنة وأول مجلة للأدب المقارن[2]. وأسهمت كل هذه الجهود في اتساع الترجمات من الألمانية والإنجليزية

والفرنسية وأصبحت العالمية من أهم خصائص القرن الثامن عشر_وهي عالمية أوروبية_ وبرزت دراسات مهمة تمتاز بالنظرة الشاملة وتدعو "إلى الانفتاح، وتربط النصوص الإبداعية بالحياة الاجتماعية منها: جان جاك روسو وأصول العالمية الأدبية 1895لجوزف تكستJ.Texte وجوته في فرنسا بالدنسبرجرF.Baldensperger

خصّت المدرسة الفرنسية باهتمامها مسائل مثل الشهرة والتوغل، والنفود والسمعة نحو موضوع "غوته في فرنسا وانكلترا" ، وأوسيان وكارليل وشيلر في فرنسا. وطورت منهجا يذهب إلى أبعد من جمع المعلومات التي تتعلق بالمراجعات والترجمات والتأثيرات، ليتفحص بإمعان الصورة، ومفهوم كاتب معين في وقت معين، بالإضافة إلى عوامل النقل المتعددة كالدورات والمترجمين والصالونات والمسافرين،كذلك "عوامل التلقي" والجو الخاص والوضع الأدبي الذي أدخل فيه الكاتب الأجنبي.[3]

يحق لحقل الدراسات المقارنة –انطلاقا من جهود أقطاب هذه المدرسة خلال نهاية القرن التاسع عشر والعشرية الأولى من القرن العشرين – أن يفتخر بما حقق من نتائج جد إيجابية تتمثل في : تاريخ المبادلات الأدبية الدولية، ولاسيما البحث في الأصول والمؤثرات الخاصة والعامة، ودراسة الموضوعات والأنماط، والتاريخ العام للأدب الغربي في عصوره الكبرى وأجناسه الأدبية ودراسة التيارات والحركات الأدبية. وقد أسهمت هذه البحوث في ظهور دراسات متعددة ومعاجم وفهارس تؤرخ للآداب الأوروبية وتحاول أن تطعّم الدراسة الأدبية برؤى منهجية جديدة أخرجتها من فضاء المعيارية والوصف البلاغي الجاف إلى رؤى منهجية محددة التقنيات. وقد تدعم ذلك بجملة الحقول المعرفية التي تداخلت مع الأدب المقارن وكان موضوع اختلاف بين الباحثين خاصة ما تعلق بالحدود بين الأدب العام والأدب المقارن والأدب العالمي والأدب المقارن، وغيرها من القضايا المنهجية التي ترتبط أساسا بتقنية المقارنة وضرورة الاهتمام ببنية النص موضوع المقارنة.

لقد توسعت انتقادات انطلاقا من تضحية المقارنين بالجانب الجمالي لحساب مبادئ الرؤية الوضعية البالية. إنها انتقادات صائبة إلى حدّ ما، ولكن ما تم إنجازه بإتقان جدير بالبقاء؛ فالإنجازات المتأخرة مدينة إلى حدّ بعيد لجهود الباحثين الأوائل الناجحة، ولم تتجاوز الدراسات التي تنشرها مجلة الأدب المقارن التي أسسها **جان ماري كاري** الفكرة الأساسية التي صاغها هذا الأخير:"إن الأدب المقارن فرع من التاريخ الأدبي، لأنه دراسة للعلائق الروحية الدولية والصلات الواقعية"وهوالنهج الذي سار عليه تلامذته(م.ف .غويار/جاك فوازين) [4].

لم تستطع هذه المدرسة أن تتجاوز الإرث الثقافي الوضعي، وخضعت مفاهيمها ومعالجاتها لهذا المنظور مما سبّب ضعفا في دراسات هذه المدرسة التي ظلت حبيسة دراسة المصادر والتأثيرات وعلاقات الأسباب بالمسببات والشهرة والاستقبال. ولا تتيح مثل هذه الدراسات تحليل العمل الفني والحكم عليه، وتدبر نوعه ككلّ معقد، وهي بهذا إما أن توفر نفسها بالدرجة الأولى على أصداء رائعة فنية معينة، أو تنصرف إلى البحث عن التاريخ الذي يسبق ظهور الرائعة الفنية[5]. وهذه الرؤية التاريخية ستفرز ظهور سلسلة من الأبحاث والدراسات البيبليوغرافية تؤرخ للأدب العالمي من منظور أوروبي صرف، يُعلي من هذه المركزية، وتتحكم في آليات جمع وتصنيف وفهرسة النصوص الإبداعية جملة من الأبعاد السياسية والاجتماعية والفكرية، وتهمش آداب أخرى نتيجة هذه الرؤية المنغلقة على الفضاء الأوروبي والمحتكمة لقوة النفوذ والسيطرة .

ويبدو أن تطور الوسائل المتحكمة في الظاهرة الأدبية إنتاجا واستقبالا وتأثرها بمرجعيات جديدة، وكذلك تغير مراكز القوى والتأثير السياسي والاقتصادي والاجتماعي أسهم في وضع طرائق ومنهجية المدرسة الفرنسية وجدواها موضع شك وتساؤل. أضف إلى ذلك أن الرؤية كانت مختزلة داخل أوروبا ولم تتح الفرصة لانفتاح على آداب أخرى وستشكل هذه النقطة بؤرة الخلال ونواة أزمة الأدب المقارن.

تحول بعض مفكري أمريكا من الأدباء والشبان إلى الفلسفة الأوروبية ولاسيما الظاهراتية والوجودية كوسيلة لتطوير أساليب جديدة وفعالة للنقد الأدبي منذ الأربعينيات " وليس من المصادفة أن إجراءات التدريس المبسطة التي أدخلها النقد الجديد كانت ملائمة تماما لهذه الأوضاع على عكس المناهج التعليمية الأكثر تعقيدا عند النقد الاجتماعي والتاريخي التي كانت تتطلب عادة قدرا كبيرا من الخلفية التعليمية "[6] . وبتغيير نمط التعليم الأكاديمي الجامعي وتطوير المناهج تتغير المقررات والأهداف وستعقد المؤتمرات الدولية وتتأسس الجمعيات الوطنية التي ستُسهم لا محالة في تجديد آليات الدرس الأدبي.

كان الاهتمام بالعوامل الخارجية المؤثرة في الأدب، وإهمال الأدب نفسه– وهو موضوع الدراسة الجوهري – واستبعاد عملية النقد من الدراسة المقارنة سببا في قصور هذه الرؤية ليس في الدرس المقارن فحسب بل في الدرس الأدبي بصفة عامة، ناهيك عن التطور الذي عرفته الدراسات اللسانية والفلسفية. وقد استغل بعض الباحثين انعقاد المؤتمر العالمي للأدب المقارن بشابل هيل(Chapel Hill) سنة 1958 [7]_ وهو المؤتمر الثاني وأول مناسبة يلتقي فيها المقارنون الأمريكيون رسميا بزملائهم الأوروبيين_ في توجيه انتقادات منهجية لهذه المدرسة والإعلان عن رؤية منهجية جديدة. وبذلك وجد الأساتذة الزائرون لأمريكا أنفسهم أمام حركة جديدة تستمد مقوماتها من التغيرات التي مست الظاهرة الأدبية (إبداعا_نقدا_منهجا) وربطتها بسياق تاريخي ومعرفي جديد.

إنّ حاجة أساتذة الأدب إلى أداة منهجية جديدة تتماشى مع المتغيرات الجديدة أي الواقع المعرفي الجديد، دفعهم إلى صياغة منظور جديد يتعامل مع الظاهرة الأدبية داخليا ويحاول من جهة أخرى أن يقرب بينها وبين فنون أخرى كالرسم والموسيقى والسينما تشترك معها في بعض الخصائص، ولاشك أن هذه النقلة النوعية ستؤثر على كيفية التعامل مع النصوص انطلاقا من جملة التحولات التي عرفتها المعرفة الإنسانية عموما والأدبية بصفة خاصة.

شنّ **رينيه ويليك** René Wellek هجومه على المدرسة الفرنسية، واتضحت آراءه المبكرة في كتابه نظرية الأدب (Theory of literature) بمعية **أوستين وارين** Austin Warren ، حيث تحدثا في الجزء الأول عن الأدب العام والمقارن والقومي، وأفردا الجزء الأخير لدراسة الأدب من الداخل ونوّها بأهمية دراسة بنية النص في الكشف عن جمالياته، وكانت الأفكار التي طرحت في الكتاب دافعا قويا مكّنهما في مرحلة لاحقة من نقد الدراسات الأدبية التي تركز على العوامل الخارجية للنص الأدبي وتُهمل مكوناته الداخلية وتقديم رؤى جديدة تنسجم مع التحولات المعرفية التي عرفتها الظاهرة الأدبية.

أوجدت التحولات الكبرى التي عرفها العالم على مستويات عدة (سياسية واقتصادية واجتماعية) أفكارا جديدة عارضت جملة المبادئ التي لخصت اتجاهات البحث في الدرس المقارن حسب التصور التاريخي لهذه المدرسة، وخاصة ما تعلق بضرورة وجود صلات تاريخية حقيقية واختلاف لغوي. إذ لا يعول على الشرطان في مرحلة اتسمت بالانفتاح على الحدود سواء أكانت جغرافية أم تاريخية، أم لغوية.

تطورت العلوم الإنسانية وأدى ذلك إلى إعادة النظر في عدة مفاهيم وكان تأثير الحركة اللسانية عميقا أسهم في خلخلة رؤية منهجية كانت سائدة طيلة قرون وإقرار رؤية جديدة تعتمد الوصف والاستقراء ودراسة البنى الداخلية وكان الإنجاز مهما أسهم في تطور المناهج الداخلية وتراجع المناهج السياقية.

وركزت معظم الاتجاهات الجمالية والشكلية على النص الأدبي ذاته وبالذات بوصفه بنية لغوية. وقد تجلى هذا المنهج في معالجة "الشكلانيين الروس" وفي تطبيقات ممثلي النقد الجديد في الأدبين الإنجليزي والأمريكي . إلا أن الاتجاهات الألسنية والأسلوبية والبنيوية الجديدة هي التي أعطت السلطة المطلقة للنص، وأهملت أو كادت معظم الجوانب الأخرى الخاصة بالإبداع الأدبي كدور القارئ والمبدع والظروف الاجتماعية والمرحلة التاريخية والدلالات السيكولوجية والإيديولوجية والفلسفية وغيرها.[8]

أمام هذا المد المنهجي الجديد وجدت المدرسة الأمريكية أرضية بكرا مكنتها من تقديم بديل منهجي جديد انطلاقا من نقد أهم مبادئ المدرسة الفرنسية وتقديم رؤية جديدة للدرس المقارن تقوم على:

-تجاوز مبادئ المدرسة الفرنسية.

-تقديم مفهوم جديد للأدب المقارن.

-صياغة خصائص تُميز المدرسة.

-رسم مختلف أهداف المدرسة.

-تحقيق دور ريادي للمدرسة الأمريكية.

ثانيا-خصائص المدرسة الأمريكية(النص-الثقافة):

استفادت هذه المدرسة من النتائج والإنجازات الأوروبية، وخضع منظور المقارنة إلى مواضعات جديدة تجاوزت المواقف الضيقة، ومن ثمة أعلنت القطيعة مع بعض الممارسات المنهجية التي اتسم بها الدرس الأدبي الأوروبي بصفة عامة والمقارن بصفة خاصة.

يرى بيشوا أن المدرسة الأمريكية تعتمد مكونين أساسيين المبدأ الأخلاقي والثقافي يعملان على خصائص المدرسة الأمريكية، يقوم الأول على اعتبارات تاريخية تحيل على حداثة الحضارة الأمريكية التي تكون مزيجا من الجنسيات والثقافات، ويعكس انفتاح أمريكا على العالم، واهتمامها بالثقافات الأجنبية ويتلخص الثاني في البحث عن هوية ثقافية وجدت إطارها المنهجي والمعرفي وتخلصت من تاريخية القرن 19م. كما حاولت أن تحافظ بغيرة على القيم الجمالية والإنسانية للأدب الذي لا زال يعد انتصارا روحيا مثيرا، والانطلاق في تجارب المنهج، والشرح الأكثر انتقائية دون خوف من أي تيه.[9] وجلي أن التحكم في هذه الآليات الجديدة المرتبطة بحجم المبادلات الأدبية شرقا وغربا سيعيد النظر في حقول دراسية متاخمة للدرس المقارن كالأدب العام والأدب العالمي ويعيد رسم حدود التوازي والاختلاف.

ينتمي أقطاب المدرسة الأمريكية إلى بلدان مختلفة، وهذا ما يفسر اختلاف توجههم الناتج عن اختلاف الثقافة واللغة ورغم هذا الاختلاف إلا أنهم يتفقون حول جملة من الثوابت تشكل الإطار النظري لتوجهات المدرسة المتأثرة بمنجزات النقد الجديد والحركة البنائية. ومن أبرز هؤلاء التشيكي: "ريني وليك" والألماني "هورست فرانز" (Horst Frenz)، والإيطالي "جيان أورسيني" (Gian Orsini). و هنري ريماكH . Remack والبولوني "زبيفنيو (Zbigniew)، والروسي "جلاب ستريف" (Gleb Strive) والسوسري "فارنر فريديريش (Werner Frideriech)، و"فرانسوا جوست" (François Jost) ، و هاري ليفنHarry Levin ، روبير.ج .كليمنتس Robert. J. Clements"، وقد قدم هؤلاء الباحثين دراسات متنوعة تتناول قضايا تتعلق بتحديد المفاهيم وتأصيل الرؤية المنهجية واقتراح البدائل في ضوء التطورات التي عرفتها المعرفة الأدبية بصفة خاصة والمعارف الإنسانية بصفة عامة.

ويمكن أن تستخلص جملة الخصائص التي تميز هذه المدرسة من الكتب والدراسات والمقالات التي أنجزها رواد هذه المدرسة ويمكن أن نشير إلى ما كتبه:

1-روني وليك: نظرية الأدب ومفاهيم نقدية.

Austin Warren, René Wellek, Theory of literature
René Wellek, discrimination,further concepts of criticism,Yale,unv press,1970.

2-هنري ريماك: الأدب المقارن تعريفه ووظيفته.

H . Remack , Comparative literatur , its, definition and fonction

3-هاري ليفن:انكسارات، مقالات في الأدب المقارن.

)Harry Levin, refrations , essays in comparative litteratur, exford univ,press,New York,1966 .
(

4-روبير.ج .كليمنتس Robert. J. Clements":« الأدب المقارن تخصص أكاديمي: المبادئ الأساسية،والتطبيقات والمقاييس (1978).
(Comparative Literature as Academic Discipline: Astatment of principales, Praxis and Standards»).

تجلت في هذه الدراسات وأخرى مجموعة من الخصائص تتسم بها هذه المدرسة، ويمكن أن نجمعها في خمسة خصائص هي:الشمولية والانفتاح و الحركية والأدبية والحرية، وهذه الخصائص متكاملة وتعبر في مجملها عن التوجه العام للمدرسة.

1-الشمولية: تنظر المدرسة الأمريكية إلى دراسة الظاهرة الأدبية في شموليتها، دون مراعاة للحواجز السياسية واللسانية، حيث يتعلق الأمر بدراسة التاريخ والأعمال الأدبية، من وجهة نظر دولية. وقد استفاد المفهوم الأمريكي للأدب المقارن، من ردود الفعل التي ظهرت خلال القرن العشرين، ومن المتغيرات الفكرية والمنهجية متلافيا القصور في المفهوم الفرنسي. فالأبحاث السابقة ضيقت مجال الأدب المقارن وقصرته على تناول ما هو أجنبي، وقد سبب ذلك تفتيت العلاقات وعزلها عن كل شمولية. ومن هذا المنطلق يحدد هنري ريماك توجه الدرس المقارن كالتالي:
" إننا نتصور الأدب المقارن، كموضوع أقل استقلالية، بقواعد وقوانين مرنة، أكثر منه مادة مساعدة وضرورية(...) إن هذا الفهم المعمق، يستطيع توضيح العلاقة بين عدة آداب مختلفة، وكذلك توضيح العلاقة بين الأدب وميادين أخرى للمعرفة والإبداع الإنسانيين، خصوصا الميدان الفني والأيديولوجي، وهكذا يكون بحثنا الأدبي، قد امتد ليشمل البعد الجغرافي والبعد النوعي."[10]

ويتضح مما أورده ريماك في أبحاثه التي خص بها حوليات جامعة "يال" أن هناك نزوعا نقديا وقيميا يسيطر على الدرس المقارن في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد تحدث عن المظاهر الوظيفية والتواصل العضوي والقوانين والمعايير والأنساق وهي اصطلاحات جديدة على الدرس المقارن حلّت محل الصلة والنجاح والرواج والمجد والتأثير والتأثر. وحققت بالتالي ما يمكن أن نسميه التناول الشمولي للظاهرة الأدبية والابتعاد عن الحدود الضيقة التي رسمتها الدراسات السابقة.

2-الانفتاح: ينتج عن تحقق الخاصية الأولى انفتاحا على الحدود سواء أكانت جغرافية أم لغوية أم أدبية وقد عبّر عن ذلك "وليك" في كتبه ومقالاته التي حدد فيها ماهية الأدب المقارن وأكد أنه يدرس الأدب من منظور عالمي ومن خلال الوعي بوحدة التجارب الأدبية، فهو الدراسة الأدبية المستقلة عن الحدود اللغوية والعنصرية والسياسية وسيكون بوسع الباحثين كتابة تواريخ للأدب القومي الذي لا يقتصر على النواحي الجغرافية أو اللغوية فقط [11].

وأشار في كتابه نظرية الأدب إل أنه من المهم أن نفكر بالأدب كمجموع وأن نتابع نمو وتقدم الأدب دون اعتبار للفوارق اللغوية. ويستوعب منهج المدرسة الأمريكية –انطلاقا من الطرح السابق– مسائل أكثر انفتاحا، ويشمل الدراسات المقارنة بين الآداب المختلفة، وقد يتعدى ذلك إلى المقارنة بين الآداب وغيرها من الفنون على وجه الخصوص، ومثال ذلك: دراسة الحركة الرومانسية في الشعر والموسيقى والرسم، ودراسة الأدب في علاقته بغيره من العلوم الإنسانية كعلاقته بعلم النفس أو الاجتماع. ومعنى ذلك دراسة النص الأدبي ليس في علاقته بغيره من النصوص الأدبية فحسب بل في علاقته بالفنون الأخرى ومظاهر التعبير والفلسفات المختلفة. ومن هذا المنطلق تصبح المقارنة أداة منهجية للفهم والإدراك وتمكن من " الانفتاح التام والشامل على النشاط الإنساني، مما يسمح بالإحاطة بالظواهر الأدبية، بغض النظر عن فضاءاتها ومناهجها المختلفة، ما دامت تستهدف الفهم الأدبي في مجموعها."[12]

وقد أكّد هذا المنحى الانفتاحي " ريماك" حين اعتبر **الأدب المقارن** دراسة الأدب بحيث تتعدى حدود القطر الواحد، ودراسة العلاقات القائمة بين الأدب من ناحية وبين مجالي المعرفة والمعتقدات الأخرى كالفنون، والفلسفة، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية، والعلوم البحتة، وللأديان، إلخ، من ناحية أخرى. وبهذه الطريقة يتحقق الاستقصاء الأدبي جغرافيا ونوعيا.

3-الحركية: يستدعي الانفتاح حركية في مجال الدرس المقارن تتحقق من خلال الربط بين التاريخ والنقد باعتبارهما عاملين ضروريين في الدراسة المقارنة. ومن ثمة لا يمكن الفصل بين النقد والتاريخ بل يجب أن يكون هناك تكامل لتحقيق وظيفة أساسية تتمثل في وصف العمل الأدبي وتفسيره وتقويمه.

ومن هذا المنطلق كان نقد "وليك" لأعمال الفرنسيين ورأى "أن برامج العمل التي نشرها بالدنسبرجر، وفان تييغم و غويار قد فشلت في المهمة الأساسية، فقد أثقلوا الأدب المقارن بمنهجية عفا عليها الزمن، ووضعوا عليه أعمال القرن التاسع عشر الميتة من ولع بالحقائق والعلوم أو النسبية التاريخية[13]". وكانت الاقتراحات المنهجية الجديدة تلح على الطابع الحركي وتمج تلك الصرامة التي ميزت الدراسات السابقة، وتلح على الوعي بالقيم بدل الأحداث الجامدة.

4-الأدبية: هذه الخاصية هي جوهر الخلاف بين رؤية المدرسة الأمريكية والفرنسية، حيث انتقد "وليك" وغيره التوجه الفرنسي الذي يلغي الدراسة الداخلية ويكتفي بالمؤثرات حاول رواد هذه المدرسة أن يفرقوا بين دراسة تاريخ الآداب دراسة مقارنة وبين الدراسة المقارنة للآداب. وينبغي نتيجة لذلك تجاوز دراسة العلاقات إلى الاهتمام بدراسة القيم. وكما تلح المدرسة على ضرورة الاعتراف بدور النقد الأدبي ودعم مفهوم البنية والمعنى اللذين يحددان العمل في حدّ ذاته ويصبح تبعا لذلك التاريخ الأدبي تاريخا للنقد وفعلا للتخييل[14].

كما تؤكد على التعامل مع الأبعاد الداخلية للنص الادبي وتركز على الجوهر الفني والجمال. ومن هذا المنطلق فالعمل الأدبي بالنسبة إلى وليك هو:" بنية ذات طبقات من الرموز والمعاني المستقلة تمام الاستقلال عن العمليات التي تدور في ذهن الكاتب أثناء التأليف، ولذا فهي مستقلة أيضا عن المؤثرات التي قد تكون شكلت ذهنه."[15] فهو يفقد أدبيته عندما تلغى هذه البنية، وهذا ما جسدته دراسات التأثير التي ركزت على الجوانب الخارجية وأهملت جوهر أدبية النص "البنية الداخلية".

وقد تبنى وليك فكرة مغايرة تماما واقترح استخدام كلمة أدب بديلا للمقارنة والأدب القومي، ونادى بأدب فوق القوميات ومن هذا المنطلق دعا إلى أن يعاد النظر في كتابة التاريخ الادبي كتركيب، وعلى مستوى فوق القوميات. وسوف تشتد حاجة دراسة الأدب المقارن بهذا المعنى، إلى الكفاءات اللغوية والمنظورات المتسعة، بتجاوز العواطف المحلية والإقليمية، فالأدب واحد، والفن والإنسانية واحد.[16]

توسعت دائرة البحث في الأدب المقارن من خلال الاهتمام بالعناصر الأدبية في النص، والحقيقة أن هذه الخاصية هي جوهر المنحى العام الذي سيطر على الدراسات الأدبية بدءا من حركة النقد الجديد والشكلانيين الروس والبنيوية، وقد استفاد رواد المدرسة من النتائج التي حققتها هذه الحركات الجديدة في لفت الانتباه إلى ما يميز النص الأدبي أي **أدبيته**، وقد تطورت هذه الرؤية فيما بعد فيما يسمى **الشعرية المقارنة**، حيث تبنى هذه الفكرة روني اتيامبل ودعا إلى أسلوبية مقارنة على ألاّ تترك إلى اللسانيين فقط الذين يفتقدون لحساسية اللغة الجميلة[17]، وهذا التنبيه الهدف منه الإبقاء على الخاصية الجمالية للنص الأدبي.

5-الحرية: وتعدّ من أهم سمات المدرسة وتتحقق هذه الخصائص انطلاقا من الخصائص السابقة فالشمولية والانفتاح والحركية عوامل مهمة تسهم ي توفر نوع من الحرية يطبع المدرسة التي حاولت أن تتجاوز المركزية الأوروبية وأن

تتفاعل مع المعطيات المعرفية الجديدة، والتحولات العالمية. ولما كان ظهور الأدب المقارن رد فعل ضد القومية الضيقة، واحتجاجا ضد انعزالية العديد من مؤرخي الآداب الأوروبية كما يقول "ريني ويليك" فقد أصبح الدافع الوطني كذلك "يكمن خلق العديد من دراسات الأدب المقارن في فرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها أدى إلى نظام غريب من مسك الدفاتر الثقافية، وإلى الرغبة في تنمية مدخرات أمة الباحث عن طريق إثبات أكبر عدد ممكن من التأثيرات التي أثرتها أمة على الشعوب الأخرى أو عن طريق إثبات أن أمة الكاتب قد هضمت أعمال أحد العظماء الغرباء وفهمته أكثر من أمة أخرى؟[18]".

ودعا في السياق نفسه "رماك" إلى مراجعة مفاهيم الأدب المقارن انطلاقا من رؤية نقدية تعطي الاعتبار الأكبر لما يقدمه الأديب من موهبته وقدراته، أي هو دراسة الأديب انطلاقا من ذاته وإبداعه وليس انطلاقا من مصادره. وأشار إلى ضرورة العناية بذوق الباحث، وتجاوز البحث عن المصادر التاريخية التي تحصر جهده في التعامل مع الوثائق لا أكثر.

ثالثا–الأهداف:

سعى أقطاب المدرسة الأمريكية ومن جاء بعدهم إلى زعزعة جملة المفاهيم والطرائق والرؤى المنهجية التي سادت في مراحل تاريخية من تطور الدراسات المقارنة، وحاولوا في السياق نفسه نقل بؤرة الاهتمام بهذا الحقل المعرفي من المركزية الأوروبية ممثلا في الزعامة الفرنسية، وتجاوز جملة المبادئ والأسس المنهجية والتطبيقات التي هيمنت ردحا من الزمن، ولا يتحقق ذلك إلا بالانفتاح على المعارف والمناهج والفنون وأشكال التعبير المختلفة، وإلغاء الحدود المصطنعة التي أقيمت بين النقد الأدبي والأدب المقارن، وإعادة اللحمة بينهما، وعموما يمكن أن نوجز جملة الأهداف التي سعت المدرسة إلى تحقيقها فيما يلي:

1–دراسة الظاهرة الأدبية في شموليتها دون مراعاة للحواجز سواء أكانت السياسية أم لغوية أم جغرافية.

2–تجميع المعارف الأدبية في تصنيف يراعي المقولات الجديدة.

3–المزاوجة في الدراسة بين الأدبي والفني وتفرض هذه الأخيرة تداخلا في الاختصاصات والثقافات.

4–الهدف الرئيس بلوغ البنية الجمالية والتشكيلية للنص المقارن وليس إثبات التأثير والتأثر.

ورغم أن معظم هذه الأهداف تبدو ممكنة التحقيق إلا أن المرجعيات التي انبثقت منها تعكس خلافا بين مركزين (أوروبي_أمريكي) وإن حاول أقطاب المدرسة الأمريكية الانفلات من كل ما هو إيديولوجي أو يشكل على الأقل صداما بين معسكرين إلا أن تبعات الصراع تجلت فيما أنتج ثقافيا. ويمكن أن نشير إلى الاختلافات التي تعززت بين أقطاب المدرسة الأمريكية وبين المدرسة السلافية إلا أنه في الإطار العام حاول المنتمون للمدرسة السلافية الجمع بين المنظورين السابقين(الفرنسي والأمريكي) وخلق رؤية محورها الرئيس الجدلية التاريخية.

رابعا–الدور الجديد للدرس المقارن في ظل التحولات المعرفية:

حقّق المشتغلون في هذا الحقل المعرفي نتائج متميزة على مستوى التنظير والممارسة، وقاموا بدور ريادي نقل الدراسات المقارنة إلى آفاق رحبة رغم بعض الانتقادات التي وجهت لبعض الدراسات، وقد أدت الاقتراحاتها الجريئة التي ميزت بحوث المقارنين في المؤتمرات الدولية والوطنية أو من خلال تلك المقالات والبحوث التي نشرت في محلات الأدب المقارن وبشّرت برؤية جديدة، وأعادت النظر في الكثير من المسلمات، ويمكن أن نجمل الدور الريادي لجهود هؤلاء من خلال دورين أساسيين:

–انفتاح الدرس المقارن وتطور مناهجه

-رسم استراتيجية جديدة في ظل التحولات المعرفية والتقنية.

أ- **انفتاح الدرس المقارن وتطور مناهجه:** انفتحت الدراسات المقارنة على ثقافات واستوعبت الفلسفات وتجاوزت الأدب إلى الفنون وأشكال التعبير المختلفة، أضف إلى ذلك الاهتمام بأدبية النص وكل هذه الأفكار وسعت من الأدب المقارن وفتحت شهية الباحثين، وتمكن بعضهم في مراحل لاحقة من صياغة رؤى جديدة تحاول دائما أن تفتح هذا الحقل المعرفي على المستجدات التي تعرفها الظاهرة الأدبية في تفاعلها مع الظواهر الأخرى. ويمكن أن نذكر في هذا السياق مجمل الأبحاث والدراسات في مجال الموضوعات والأساطير الأدبية وظهور سلسلة من القواميس والمعجمات المتخصصة في الدراسات المقارنة استفادت من الطرح السابق واستوعبت كل التقنيات والآليات الجديدة لتفعيل الدراسات الأدبية المقارنة.

وقد تجلى هذا المجهود في سلسلة من الأعمال الرائدة التي قام بها الباحث الفرنسي "بيار برونال " لاسيما في معجميه: "معجم الأساطير الأدبية" Dictionnaire des mythe littéraires و"معجم الأساطير الأنثوية Dictionnaire des mythe Feminins) في إغناء الدراسات الأدبية الأسطورية، كما أسهمت فرقة البحث التي يشرف عليها في إقامة سلسلة من الندوات العلمية والملتقيات الدراسية حول الأساطير الأدبية من حيث الدراسة والآفاق المستقبلية وعلاقاتها المختلفة بالعلوم الإنسانية.

ب- الاستراتيجية الجديدة للدرس المقارن: لم تكن جملة الانتقادات الموجهة إلى البحوث الكمجزة مطبات بقدر ما كانت حوافز دفعت البعض إلى إعادة النظر في الأدب المقارن واتجاهاته، ثم قضاياه وعلاقاته وانفتاحه على العلوم الأخرى ومن ثمة البحث عن مفهوم للأدب المقارن واقتراح بدائل منهجية تتماشى مع التحولات المختلفة. وتجلى ذلك من خلال ما طرحه اتيامبل في "المقارنة ليست حجة"، (Comparaison n'est pas raison) وتلاميذه "بيار برينال" و"كلود بيشوا" و"أندري روسو"، وذلك من خلال مؤلفهم "ما الأدب المقارن"(Qu'est-ce que la littérature comparée) حيث أبانت طروحاتهم عن فهم متميز لطبيعة التحولات التي عرفتها الظاهرة الأدبية، حيث يحوي الكتاب السابق موضوعات شيقة ووجهات نظر جديدة ومثال ذلك الفصل الخاص بدراسة **الموضوعات الأدبية** والفصل الخاص بدراسة **تاريخ الأفكار** والفصل الخاص **بشعرية الترجمة**، والمطّلع على الكتاب يدرك جيدا أن هناك تحولا عميقا في طرح الفرنسي سواء تعلق الأمر بالجوانب الفكرية أو الفنية أو التقنية.

ومن هذا المنطلق صاغ برونال وزملاؤه مفهوما جديدا للأدب المقارن يستجيب لمجمل التحولات فهو :**"الفن المنهجي** الذي يقرب، بفضل البحث في علاقات التشابه والقرابة والتأثير، الأدب من ميادين التعبير الأخرى، أو من ميادين المعرفة أو يقرب الاحداث والنصوص الأدبية فيما بينها بغضّ النظر عن قربها أو بعدها، زمانيا أو مكانيا، شريطة أن تنتمي إلى لغات وثقافات متعددة، حتى لو كانت تنتمي إلى إرث واحد، وهذا بغية وصفها وصفا أفضل، وفهمها وتذوقها."[19]

والملاحظ على هذا التعريف أنه لا يؤكد على الروابط التاريخية وإنما يشير إليها، ولا يجعلها شرطا أساسيا، ويتجاوز بذلك الإرث التقليدي للمدرسة الفرنسية، ولا يتعامل مع الظاهرة الأدبية منعزلة، بل يتجاوزها إلى ميادين المعرفة، وينطلق من فكرة التأثر والتأثير ليتجاوزها إلى المشابهة أي أنه يركز على العلاقات ولا يجعلها شرطاً أساسيا، وهو بهذا يضيف بعداً جديداً لميدان الادب المقارن بدفعه إلى دراسة العلاقات بين الأدب وحقول المعرفة الأخرى ولاسيما الفنون كالرسم والنحت وبذلك يسجل نقطة إضافية شديدة الأهمية أكد عليها أقطاب المدرسة الأمريكية، وتتجلى مرونة المفهوم عندما يقترح الثلاثي الفرنسي (برونال_بيشوا_روسو) على كل واحد أن يحذف من التعريف ما يراه غير ملائم أو زائد. ويبدو أن سلسلة المؤتمرات التي انعقدت في السوربون وآخرها كان في جولية 2013 يعكس

تحولات جديدة للدرس المقارن تفتح الظاهرة الأدبية على الفنون والعلوم والاقتصاد والسياسة والمجتمع والثقافة وكل ذلك من أجل تفعيل الدرس المقارن والتجاوب مع الذوق الأدبي الجديد.

الخاتمة:

انفتحت الدراسات المقارنة على ثقافات واستوعبت الفلسفات وتجاوزت الأدب إلى الفنون وأشكال التعبير المختلفة، أضف إلى ذلك الاهتمام بأدبية النص وكل هذه الأفكار وسعت من الأدب المقارن وفتحت شهية الباحثين، وتمكّن بعضهم في مراحل لاحقة من صياغة رؤى جديدة تحاول دائما أن تفتح هذا الحقل المعرفي على المستجدات التي تعرفها الظاهرة الأدبية في تفاعلها مع الظواهر الأخرى.

أسهمت عوامل كثيرة في تطور الدرس المقارن ، وكان دور المدارس والتيارات بارزا في توجيه حركية الأبحاث وفي صياغة رؤية منهجية جديدة روّجت لمصطلحات ومناهج وتطبيقات متنوعة. ويمكن القول إن الأقسام الأدب المقارن التي فتحت في جامعات أوربا وأمريكا وآسيا وساعدت على استقطاب دارسين متميزين ، وكان الانفتاح والتحرر ومرونة التعليم الجامعي من بين أهم العوامل التي أسهمت في تطور الدراسات والانطلاق إلى فضاءات جديدة.

لم يكن تطور الدرس المقارن في أمريكا بوجه عام والولايات المتحدة الأمريكية على الوجه الخصوص عفويا وإنما كان تأثير الأوروبيين الوافدين واسعا، وقد ساعدت عوامل كثيرة تطور الدرس المقارن في هذه المنطقة، وكان للخصوصية الثقافية دور بارز في توجيه الدرس الأدبي وفي صياغة رؤية منهجية جديدة أسهمت في بلورة مصطلحات ومناهج وتطبيقات الأدب المقارن في أمريكا. ويمكن القول إن الأقسام الأدب المقارن التي فتحت في جامعات أمريكا أسهمت في استقطاب دارسين متميزين من مختلف الجنسيات، وفي هذا السياق لا يمكن تجاهل جهود باحثين من آسيا وإفريقا.

قدّم المشتغلون في مجال الدرس المقارن تصورا مبنيا على جملة من الخصائص راعت من خلالها جملة التحولات التي عرفها النص الأدبي متأثرا بالمرجعيات التاريخية والسياسية والثقافية واللغوية والمعرفية، ورسمت أهدافا محورها الرئيس رؤية شاملة تنفتح على النص داخليا وخارجيا، ورغم وقوع الباحثين في بعض الهنات والزلات المنهجية إلا أن انتقاداتهم وأفكارهم أسهمت في مرحلة أخرى في ميلاد أفكار أكثر جرأة لاسيما ما تعلق **بالتناص المقارن والبلاغة المقارنة والدراسات الثقافية المقارنة والنص المفرغ**. ويبقى في الأخير أن نؤكد ما قاله **ريماك:**" ليس من الضروري، أن تكون الدراسة المقارنة مقارنة، في كل صفحة، بل حتى في كل فصل، ولكن المقارنة تتأتى من خلال القصد الشامل، والتوكيد وطريقة التنفيذ. وإن اختبار هذه الأمور يتطلب محاكمة موضوعية، وكذلك شخصية. لذلك لا يجوز توطيد قواعد جازمة، تتحكم بهذه المعايير." [20] لأن القواعد تتميز بالمرونة والحركية المستمرة وشرط التحكم فيها امتلاك **الكفاءة والرؤية والطريقة.**

الهوامش:

1–سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن، دراسة منهجية، المركز الثقافي العربي: ط1، 1987، ص 55.

2– صدر سنة 1921 العدد الأول من المجلة الفرنسية "الأدب المقارن" ، ويعد مقال فردينانند بالدينسبرجر المعنون بـ"الكلمة والشيء" أول مقال تنظيري للمدرسة الفرنسية. انظر:(F.Baldensperger, Le mot et la chose, Revue Litterature compare,1921.)

3– ريني ويليك، و أوستين أرين، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية: دمشق 1972، ص 50.

4–J.M. Carré , Introduction à la littérature comparée de M.F. Guyard , P.U.F , paris, 1951 .
وينظر:سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن، ص.63

5– ريني ويليك، وأوستين وارين ، نظرية الأدب، ص51.

6–قنشت ب.ليتش:النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينات إلى الأربعينات، ترجمة محمد يحي، مراجعة وتقديم ماهر شفيق فريد، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، ص167.

7_تأسست الجمعية العالمية للأدب المقارن سنة 1954 وعقدت مؤتمرها الأول سنة 1955 بالبندقية. ينظر: المناصرة (عز الدين):النقد الثقافي المقارن منظور جدلي تفكيكي،دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط1، 2005 ، ص124 .

8– فاضل ثامر:اللغة الثانية "في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص43.

9–أنظر Brunel (P), Pichois (CI), Rousseau (A.M), qu'est-ce que la littérature comparée p **28.**
وبرونيل (بيير)،وآخرون: ما الأدب المقارن؟ ترجمة عبد المجيد حنون، وعمار رجال، ونسيمة عيلان، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، 2005(الجزء الخاص بالمدرسة الفرنسية والأمريكية).
وسعيد علوش: مدارس الأدب المقارن، دراسة منهجية، ص93–94.

10– سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن، ص96.

11–ينظر كتاب وليك: نظرية الأدب، ص56 .
وكتاب سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن (الفصل الخاص بالمدرسة الأمريكية ص93 وما بعدها).

12– سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن، ص95.

13–أنظر سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن، ص95.
وريني ويليك ، نظرية الأدب، ص52 وما بعدها.

14– سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن، ص98.

15– ريني ويليك، مفاهيم نقدية، ترجمة د. جابر عصفور، سلسلة عالم المعرفة ، عدد (فبراير – شباط): الكويت 1987، ص 372.

16_ينظر:عز الدين المناصرة، مرجع سابق، ص119_120.
و ريني ويليك، وأوستين أرين ، نظرية الأدب،ص51.

17_ينظر:روني اتيامبل:أزمة الادب المقارن، ترجمة سعيد علوش، المؤسسة العربية الحديثة، الدار البيضاء، 1987، ص75.
وعز الدين المناصرة: النقد الثقافي المقارن منظور جدلي تفكيكي، ص123.

18- روني وليك: مفاهيم نقدية، ص 362.

19_ برونيل (بيير)،وآخرون: ما الأدب المقارن؟ ترجمة عبد المجيد حنون، وعمار رجال، ونسيمة عيلان، ط1، 2010 دار بهاء الدين، قسنطينة/الجزائر، ص244_245. (طبع الكتاب مرتين وهذه الطبعة منقحة ومصححة).

20-أنظر:حسام الخطيب ، الأدب المقارن بين التزمت والانفتاح، مجلة المعرفة، 1979، و سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن، ص103. وآراء ريماك ضمن كتاب الخطيب (حسام)، الأدب المقارن، في النظرية والمنهج، ج1 ، مطبعة الإنشاء، دمشق، 1981 – 1982، ص 44 – 45.